



بين الرؤيَّة والرؤيا بقلم جويح طربيشي

المجلى

لنا عليه كوة او مشكاة حتى عادت فانفلقت من جديد .
هكذا كانت تفعل بنا حكايات ذلك الزميل في مقهىنا الصغير في بلدتنا الصغيرة المظننة . كنا نحبها على الرغم من الرعدة التي كانت تبعثها في اوصالنا ، بل ربما بسبب تلك الرعدة . وليس أحب الي النفس من قشعريرة الخوف عندما تتمكن ذلاقة لسان محدثك من تغليفها ، بل قل تطهيرها برعشة جمالية غامرة . وليس أحب الي النفس من عوالم غامضة شيقة محفوفة بأهوال لا يمكن التنبؤ بها تنفتح لها عندما تكون هذه النفس على ثقة من ان الامر لا يعمو ان يكون اكثر من حكاية تفننت ذلاقة الراوي في اخراجها وفي خلق الاجواء التي تجعلها قابلة للتصديق في لحظة من اللحظات لا اكثر .
هذا الزميل الذي رطب جفاف أحاسيسنا لم يكن بالشاعر وان كان له ديوان من الشعر .

ولم يكن بالروائي وان كانت له رواية طويلة .
ولم يكن بالقاص وان كانت له ست مجموعات من القصص .
ولم يكن بالحكواتي وان كانت له حكايات في الرحلات وغيره الرحلات .

هذا الزميل لا اجد له من وصف غير انه كان راوية من الطراز الاول . وقد يفوق الراوية أحيانا في مراقبي الفن الشاعر والروائي والقاص ، كما برهنت على ذلك منذ الف عام شهرزاد واحاديثها المباحة الا في الصباح .

ولكن هذا الزميل مع الاسف ليس له وجود ، وانما تخيلته معكم وتخيّلتموه معي على ما ارجو لنستطيع عن طريقه ان نتخيل او نكون فكرة عن ذلك الراوية الرفيع الطراز الذي هو الدكتور عبد السلام العجيلي .

لقد اصدر الدكتور عبد السلام العجيلي حتى الان ست مجموعات قصصية هي على التوالي : «بنت الساحرة» ١٩٤٨ ، «ساعة الملازم» ١٩٥١ ، «قناديل اشبيلية» ١٩٥٦ ، «الحب والنفس» ١٩٥٩ ، «الحائز» ١٩٦٠ ، و«التخيل والنساء» ١٩٦٥ . هذا بالإضافة الى رواية طويلة وقصة طويلة وديوان شعر وكتابين في الرحلات ومجموعات مقامات ومجموعة خواطر ومقالات . ولئن كنا سنولي اهتمامنا هنا مجموعات القصص وحدها ، فهذا لان فن العجيلي كراوية يتجلى بامتع صورته واكثف دققاته في هذه القصص التي يجمعها على كثرتها وتعدد مضامينها خيط واحد او قل رؤيا واحدة الى اشياء الوجود والحياة ، واكاد اقول الكون ايضا . وعندما تكون الرؤيا واحدة

لنتصور انفسنا في بلدة صغيرة على تخوم البادية السورية ، ليس لنا ما نسلي به انفسنا او نزرده به الوقت غير اصائل وامسيات رطبة الظل ندية السمات ، نقضها مجتمعين في مقهى صغير ، تتبادل اطراف الحديث ، ويقص كل منا على الباقي ذكريات حياته الماضية في مدن كبيرة يكسبها بعدها عن البلدة الصغيرة التي نحن فيها سحرا ليس لها وحنينا لم يكن بنا اليها . وبشاء لنا حظنا السعيد ان يضم مجلسنا الصغير زميلا جديدا في جميته ذخيرة لا تنفد من حكايات واقاصيص نبل بها ظمانا الصادي في الجفاف الصحراوي . وما كانت حكايات واقاصيص الزميل تلك ؟ طريقة ؟ لا شك في ذلك . شيقة ؟ مؤكدة . فيها قسوة أحيانا ، ولكن فيها ايضا دعوة السى الرحيل الى عوالم مجهولة والى اجتياب آفاق ما كنا لنحلم بارتياها في ذلك السجن الضيق الذي ساقطنا اليه اقدار الحياة ، بلدتنا الصحراوية الصغيرة . كانت جلسات هادئة ، تبدأ بهدوء وتنفذ بهدوء ، لا يعكر صفوها - ان جاز لنا استعمال هذا المجاز - غير ومضات الفلق او الارهاص او التوجس التي كانت تبعثها فينا حكايات ذلك الزميل من حين الى حين . اقول ومضات ، وانا اعني ما اقول . هل نظرت الى السماء الصافية الاديم في ايام الربيع القلتب كيف تتلبد على حين غرة بالفيوم وترعد وتهطل مدرارا وكان ابوابها قد انفتحت فسالت ميازيب ؟! أرايتم الى الناس وقد دب في نفوسهم شيء من الفلق والخوف البهيم كلما دوت الارض من حولهم بهديسر صاعقة عنيفة ترتجف لها آثار العمران وتشر من حولها رائحة الحريق؟ ولكن ما هي الا نوان حتى تنقش الجحافل السود عن صفحة السماء فتعود كما كانت زرقاء صافية تلمع فيها الشمس حارة حادة تجذب اليها البخار المتصاعد من الارض التي تعود في مثل لمح البصر جافة يابسة وكان شيئا لم يكن . هي مزنة عارضة ليس لها ما قبلها وما بعدها ، ولكنها في اللحظة التي انشقت عنها السماء لتسفع الارض بوابلها خلفت في النفوس شيئا هو اقرب الى التوجس والخوف . من يدرينا ان تلك الزنة العارضة برعدها وبرقها وصواعقها ما كانت تحمل الموت الزؤام لادمي ضل طريقه في سبب ففر اجد ؟ بل من يدرينا ان الصدفة لن تشاء لنا ان تكون نحن ، انا او انت ، ذلك الادمي التائه ؟ ولكنها مع ذلك مزنة عارضة ، انطوت صفحة الخوف بانطوائها ، وانستنا زرقة السماء الربيعية بعدها ما اعتورنا مسن هواجس وتوجسات ونحن نرقب حريق الفيوم وهدير الزمام كاشارات صوتية وصوتية متسرلة بالوعيد من عالم مجهول غامض ما كادت تنفتح

— شأنها عند كل كاتب أصيل ، والمجلي كاتب أصيل — فانها لا بد ان تكون بالضرورة شخصية ، متميزة ، شفافة عن خصوصية. الرائي في كل لوحة من لوحاتها ، وفي كل اشراقها من اشراقها .

ونحن نقول عن رؤيا المجلي انها واحدة لانها تنطلق من منبع واحد لتنتهي الى مصب واحد مهما تباينت التضاريس وتوعدت التعاريف وكثرت او قلت الالتواءات في مسارها . ونحن نقول انها شخصية ، متميزة ، لان وجه المجلي يطل علينا منها رائقا، منفردا، ذا قسما واضحة محددة لا تشبه من قريب او بعيد قسما اي وجه اخر من وجوه الادب العربي الحديث .

ورؤيا المجلي تبدأ مسارها من «بنت الساحرة» . ولنحدد قبل كل شيء اننا اترنا عن عمد كلمة (رؤيا) على (رؤية) لما في الاولى من ابعاءات مبنافيزيقية ، ما فوق واقعية ، لا تنطوي عليها كلمة (رؤية) بجرسها المادي ، العلمي ، الفيزيقي . ولعله يجدر بنا حتى نفهم طبيعة التعارض الذي نريد ان نقيمه بين (رؤيا) و(رؤية) ان نشير الى ان القمص العشر التي تضمها مجموعة «بنت الساحرة» هي كلها قصص علمية ، وعلى وجه التحديد طبية ، ابطالها اطباء او مرضى ، ادواء او ادوية ، ومع ذلك فانها ابعد ما تكون في روحها عن الحتمية او السببية العلمية التي تريد ان نجد لكل سبب مسببا يقع تحت اللبس والنظر ، ويمكن للعقل سبره واختباره . ولان قصص «بنت الساحرة» العلمية لا تخضع لقانون العلم والسببية ، ولانها تحاول على العكس ان تثبت عجز هذا القانون او افلاسه او نقضه ، لذا فان كلمة (رؤيا) هي التي تفرض نفسها بدلا عن (الرؤية) ، بل نقيضا لها .

والرؤيا لا تأخذ ابعادها كاملة ومدلولاتها تامة ، وهي بالضرورة ابعاد لا محدودة ومدلولات متمردة على كل تقنين ، الا اذا فورنت بالرؤية بابعادها المحدودة ومدلولاتها المقتنة التي ليس فيها سر او ما وراء . ولعل هذا ما حدا بالمجلي الى ان يفتتح باكورة اعماله ، «بنت الساحرة» ، بقصة «فطرات دم» التي تحدد بمبارات صريحة مباشرة الكيفية التي تم بها الانتقال من الرؤية الى الرؤيا . ومن الاسطر الاولى للقصة تتحدد طبيعة الرؤية : «كنت في سنة ..

طبيا داخليا في مستشفى المعهد الطبي ... ولم اكن حتى عامي ذلك، وحتى فترة من الزمن بعده ، الا الطالب المجد الذي يعتقد ان دقانه وكتبه قد هوت جماع حقائق الوجود احيانا ، وزبدة تلك الحقائق احيانا اخر . وكانت كل مشاكل الحياة عندي قد قيل فيها القول الفصل على شيا اقلام فطاحل من العلماء .. فما كنت اقف عند مفصلة من مفصلات وجود الانسان الا واجد حلها فيما قاله اولئك الفطاحل وتلاميذهم . نعم ، كنت افكر احيانا وذلك حين كنت اتكلف تذكر ما غاب عني من اسماء الكتب وارقام الصفحات . وكنت اجهد فكري احيانا آخر ، وذلك حين كنت استعير ما ندد عن ذهني من اقوال اساتذتي الذين — على ما احسب كانوا مثلي في الاطمئنان الى اكتشاف حقائق الكون انكشافا تاما حاسما تحت عدسات مجاهر البحوث وضربات مشارط الجربيين .. وهكذا لم اكن لاجد في الجسم الانساني بعد ان قرأت الطب واتقنت حفظ مبادئه من الاسرار ما كنت اظنه حافلا بها قبل ان افعل . ولم اكن لاحس ان في ذلك الجسم في صحته ومرضه من الهيبة والرهبه ما يحسه الجهلاء من الناس وعامة المتعلمين الذين لم يطلعوا على ما اطلعت عليه ، ولم يتقنوا من الحفظ ما اتقنت . فقد كنت ارى ما دق وجل من وقائع الحياة الحيوانية واضح الرؤية تارة بعيني ، وتارة بعين الجهر ، وتارات اخرى بعين الكتب المترجمة عن اناس هم اقوى مني واغنى . ولذلك فهم ادق رؤية واعلم . فالحياة عندهم وعندي هي تكاتف بسيط في العمل بين ملايين الخلايا التي تزخر بها بنية الحيوان . والمرض هو سطوة الجرائم على الخلية ، او هو تأثرها من السموم ، او هو تززع الاخلاط في البنية الصحيحة واختلال الاعصاب . وان لم يكن هذا ولا ذلك فهو اضطراب

الغد الصم وتكرر مفرزاتها . وكل هذه الحقائق كانت تثبت وقائع الحياة والموت اليومية التي كنا نراها رأي العين في مستشفانا وعياداته . فقد كان الرضى يشفون طبقا لنظريات العلماء وافسوال الاساتذة ، كما كانوا يهوتون احيانا طبقا لتلك النظريات والاقوال . وفي الحالين كنت مستريح الضمير مطمئنا الى ان ما حدث لا بد ان يحدث ، وان ليس فيه سر ولا لبس ولا ابهام . وبمثل هذا الضمير المستريح المطمئن استقبلت جريحة منتصف ليل ١٥ تشرين من ذلك العام ، فعالجتها ليلئذ وقمت لها بما لم يكن من القيام به بد من الاسعاف والتدبير والمداواة» (١) .

واذا اردنا ان نعرف من هي جريحة منتصف الليل تلك ، فلنقل باختصار انها امرأة جميلة ، ناصعة البشرة ، اراد لها اهلها الزواج من شيخ ثري فهربت منه الى ذراعي ضابط اجنبي من غير دينها تزوجها وقضى معها عاما ونصف عام ثم غادرها الى صقع بعيد ولم يترك لها من آثاره «سوى خاتم في احد اصابع يديها لم يتقنذها من سكن اخيها الذي عثر بها ذات ليلة خارجة من دار السينما ، متبرجة سافرة ضاحكة» فانها عليها طعنا الى ان ظنها قد فارقت الروح ، وما كانت قد فارقتها فنقلت الى المستشفى حيث اسعفها الطبيب المناوب بان نقل اليها بعضا من دمه .

ولكن طعينة منتصف الليل هي ايضا المرأة التي زلزلت اركان «رؤية» الطبيب المناوب وجعلته يستسلم لاجنحة «الرؤيا» الشفافة المرفرفة في عوالم شبه سحرية لم يقبض دخولها الا ان تجرد من سلاح العلم والعقل القاصر . ولقد بدأت القصة كلها بمزحة اراد بها الطبيب ان يقنع الطعينة بان الدم الذي نقله من عروقه الى عروقه لا بد ان يحدث في حياتها تغييرا قويا ، لانه دم نبيل وعريق في النبل ، متحدر من قبيلة عربية شهيرة لم تعرف الهجنة ولا اختلاط الدماء . ولقد صدقت المرأة القصة ، ففطعت للطبيب عهدا بان تحفظ دمه نقيا من الدنس ولو ضحت بسعادتها وبما هو اعظم من السعادة . ولقد راع الطبيب ان يلاحظ ان تبدا فعليا قد راح يطرا عليها مع مر الايام . فقد اخذت تبعد شيئا فشيئا عن الترف الذي عهدته في حياتها ، وراحت يدها تخشوشن ومحياتها يزداد ذبولا ولكنه يزداد كذلك نبلا . وعندما رأى الطبيب المال الجاد الذي آلت اليه مزحته عن «الدم النبيل» هم بان يصارحها بالحقيقة وبان يقول لها ان «هذا الدم الذي اكثر هواجسها ليس الا حفنة من ماء مزيج بانار المعادن والدمسم والزلال ، وان ليس فيه من السر الذي يمتلك اللب او يغير من اسلوب الحياة وزن ذرة» . اجل اراد ان يفهقه ويقول لها ان «فطرات الدم التي وهها اباهما ذابت في يومها الاول ، فابتلع طحالها كرياتها، واخترن كبدها حديدها ، وطرحت كليتها ماءها» . ولكنه اذ نظر في عينها ورأى جسامه الوهم الذي شغل بالها ، اثر ان يحتفظ بحقيقته «العلمية» لنفسه وان يتركها في وهما سادرة .

وكان ما لا بد ان يكون . فقد مضت شهور كاد ينسى فيها الطبيب المرأة الطعينة وأوهامها وهواجسها ، الى ان بلغه ذات يوم الخير الذي لم يدرك له حدوثه بخلد ، خبر انتحارها لعوامل «اعيت المحققين» . فمن المحققين من نسب اقدامها على الانتحار الى الفاقة، ومنهم من قال انه الحب الياس . اما الحقيقة فان الطبيب هو وحده الذي عرفها ساعة استلم الرسالة التي كتبها اليه المرأة يوم فارقت الحياة . كتبت تقول : «لقد جاهدت طويلا في صيانة وديعتك من الاذى ... وارى من الخير ان اترك الحياة وأنا قوية على ما تريده في من قوة النفس والخلق ... ألم اقل لك اني صائنة دم اجدادك من الدنس ؟ وداعا» .

ولا اعتقد انه يصعب علينا بعد هذا ان نتخيل طبيعة التحول

(١) «بنت الساحرة» — منشورات دار مجلة الاديب — ص ٩-١٠

الذي طرأ على حياة الطبيب ومعتقداته ونظرته الى الحياة . تحول يجب الا يكون في طبيعته ادنى من التحول الذي طرأ على نفسية المرأة المنحرفة واخلاقها . ومثل هذا التحول لا يمكن ان يكون شيئا اخر غير الانتقال من الرؤية الزهوة بدقتها العلمية وتنبؤاتها الحتمية والواقفة ثقة مفرورة مطلقه بقوانينها التي تريد ان تقيم جسرا مباشرا بين الاسباب والسيئات ، الى الرؤيا التي تطمح الى ان ترى وراء المنظور البسيط المنظور المعقد ، ووراء الواقع ما فوق الواقع ، ووراء العالم ما بعد العالم ، ووراء قناع المادة «الوجه الاكبر» المتلثم بالفقاع اخر غير المادة . ولنترك للطبيب مهمة تلخيص هذا التحول :

«البُتت طويلا بعد تلك الايام اسائل نفسي وانا اتقلب بين الحزن وغذاب الضمير ، عن حلقة واهية في تلك القصة الغريبة اموه بها على ضميري ولكن عيشا كنت اتساءل . فلم يكن ثمة شك في ان سلمى قد قضت في ايلول ضحية الدماء التي انقذتها من الموت في تشرين . فهل هو الوهم الذي بلغ بها هذا المبلغ واوردها الموت ؟ ام ان الواقع كان يلعب في جسد سلمى على مسرح يجله علمي الذي كنت اتق به ، بل وينكره انكارا تاما ؟ أفكانت في تلك القطرات من الدم مسوى الكريات البنية الاشكال والطباع ، وسوى المواد المعروفة الخسواص والانواع ، عناصر من طبيعة مجهولة استطاعت ان تنقل الى جانب الغذاء والهواء الصفات الخلقية من نفس الى اخرى ؟ لقد اتعبت عقلي كثيرا في السؤال والتفكير والجواب ، وعلمت منذ غادرت قاعات الدرس قصور ما في الكتب عما في الحياة ، ولكني لم استطع ان اتناسى لحظة واحدة ان ايماني المطلق بالعلم قد جرتني في حقبة من الزمن ، كما كان الجهل المطلق جديرا بان يجرتني ، الى ان افتح امام روح شابة وجسم جميل ابواب الفناء . ان تلك هي مشكلة حيائسى وندامتى الكبرى التي لم استطع ان اتحرر من وخزاتها حتى اليوم» (١) .

ولناخذ على سبيل المثال ايضا قصة «انتقام محللول الكينا» . واعتقد ان عنوانها هو اول ما سيسوقفنا فيها . اذ يتضح من العنوان اننا هنا ايضا امام قصة علمية ، طيبة على وجه التحديد . ولا ريب ان دراسة الدكتور العجيلي للطب كان لها تأثيرها البالغ في الجسو الذي اختاره العجيلي اطارا لباكوورة انتاجه . ولكن لا ريب ايضا في ان المفارقة بين «الرؤية» و«الرؤيا» قد اتيج لها ان اكتسب بسروزا خاصا في هذا النوع من القصص الذي تتولد فيه الرؤيا من الرؤية بالرغم يجب ان نقول بفضل مما بينهما من تعارض وتضاد . والعجيلي مدرك لهذه الحقيقة ، وهذا ما يجعله يؤكد في تقديمه لقصة «انتقام محللول الكينا» على لسان راويتها الدكتور عبد الله انها «قصة غريبة يزيد في غرابتها ان يتعرض لها بوجه خاص ابناء بيئة علمية لا شك بواقفيتها بعيدة جد البعد عن دنيا الخيالات والاهوام» (٢) . والقصة هي قصة طالبين في كلية الطب ، حافظ وشرف الدين ، ما كانا بالنجيبين ، ولكنهما كانا مثل شن وطبقة متلازمين لا يطيقان بعدا او فراقا . فاذا (غضب المعلم من احدهما ضرب الاخر ، وان قصر احدهما في درس التاريخ قصر الاخر في الجغرافية . رسبا مجتمعين في صفوف متعددة ونجحا مجتمعين) . ولم يكن ثمة ما يميزهما غير لؤم في طبع الاول ، حافظ ، وغير طيبة قلب شرف الدين . وقصد اشهر امرهما بين رفاقهما في الكلية ، فاطلقوا عليهما لقب «الزوج» . ولقد ظل «الزوج» هكذا طيلة «سنتين اربع من دراستهما الجامعية لم يقو ظرف او حادث على ان يفصم عروة اتحادهما القريب هذا» الى ان عرفا غائبة بسيطة التفكير ، لطيفة ، احبتهما زوجا كما وجدتهما وكان لها من رضى النفس ولين العريكة ما حال دون تعطم العسرة

(١) المصدر نفسه - ص ١٨ .

(٢) المصدر نفسه - ص ٩١ .

بينهما في تنافسهما على قلب تلك المرأة . ولكن الشيء الذي ما كان ينتظره احد هو ما حدث في نهاية السنة الجامعية الرابعة حين افترق الزوج على اثر اجتياز حافظ الامتحان الاكلامي ورسوب شرف الدين فيه . وقد رسب هذا الاخير عندما وجه اليه الفاحص السؤال التالي: «امامك محلولان من محاليل الكينا احدهما تعرض منذ ثمانين واربعين ساعة الى غبار ملوث بالجراثيم والاخر تعرض الى ذلك الغبار منذ خمس دقائق ، واضطرت الى حقن مريضك المصاب بالملاريا بواحد منهما على حاله قبل ان يتاح لك تعقيمه بالحرارة ، فايهما تفضل ؟ اما جواب شرف الدين فكان الجواب المفلوط اذ فضل المحلول الثاني الذي لم يتلوث بالغبار الا منذ دقائق خمس ، ولم يدر بخلده ما قصده الفاحص من التنبه الى ان محلول الكينا قاتل للجراثيم بنفسه اذا بقيت فيه مدة معينة من الزمن ، وبهذا يكون المحلول الذي تعرض منذ اسبوع للغبار الحامل للجراثيم قد تعقم وطهر في هذه المدة فسي حين ان المحلول الاخر لم يتح له الوقت الكافي لذلك» .

وما ان رسب شرف الدين حتى اصبح حال الزوج بعد هذا الرسوب ، كما يحدثنا رواية القصة ، حال ذلك الشاعر القديم حين قال :

فلما تفرقنا كاني ومالكنا طول اجتماع لم نبت ليلة معا

ومع الافتراق برز لؤم حافظ ، فقد استأثر لنفسه بلطفية ، وصار يسخر من صاحبه ويتعالى عليه . وقد تألم شرف الدين لذلك مبرر الام ، فانطوى على نفسه ، وسيطرت عليه نزوة عدوانية فصار يتناول على زملائه واسانذته بالكلام والسباب ، فما كان من هؤلاء الا ان حكموا عليه بانه حاد عن جادة الصواب وجن . . . وبالفعل جن شرف الدين واستقر به المطاف في مستشفى المجانين في ضاحية من دمشق . ومضت الاعوام وتخرجت دفعة شرف الدين اطباء توزعوا فسي مشارق الارض ومغاربها . وشاءت الصدفة ان تجتمع بين رواية القصة الدكتور عبد الله وبين الدكتور حافظ في منطقة واحدة تقع على تخوم البادية السورية . وقد بلغ الدكتور عبد الله من اخبار حافظ مسا ساءه ، ولاسيما شكوى مرضاه من قلة درايته ، ولكنه كان يلتمس له العذر بانه طبيب مبتدىء ، وكان يطمئنه عليه ان «منطقة عمله لا تحتاج الى كثير علم او طويل دربة ، فهي منطقة مرزقية قد استوطنتها الملاريا فلا مريض فيها الا من يشكو نوبات البرداء وضخامة الطحال» وهذا نعيم الطبيب المبتدىء اذ يكثر فيه عمله وتقل اخطاؤه» .

وحدث ما كان لا بد ان يحدث . جاء سبعة من المرضى بالبرداء الى الدكتور حافظ طالبين اليه حقنهم بالكينا . وكان لديه قارورتان من محلول الكينا وكان يشك في تلوث احدهما لان خادم المستوصف تركها مفتوحة اثناء كمنسه الفرفة منذ اسبوع ، فعزلها على ان يطهرها متى احتاج اليها ، وفتح القارورة الطاهرة ليحقن منها المرضى السبعة . ولكن ضوضاء عنيفة صادرة عن متشاجرير عند باب المستوصف اضطرتهم للخروج لتهدئتهم ، وعاد بعد خمس دقائق ليحقن المرضى من القارورة التي ظلت مفتوحة اثناء غيابه ، فكان ان قضى السبعة نحيبهم بسبب تلوث المحلول وبسبب خطيئة الدكتور حافظ الذي غاب عن ذهنه ان محلول الكينا يملك القدرة على قتل الجراثيم اذا بقيت فيه مسدة طويلة من الزمن والذي كان عليه بالتالي ان يحقن مرضاه بالقارورة التي تلوثت قبل اسبوع .

ويبدو ان موت المرضى السبعة اثر تأثيرا شديدا على اعصاب الدكتور حافظ ، فحاول الانتحار ، ثم خائنه اعصابه نهائيا فجن ولحق بصاحبه في مستشفى الامراض العقلية . وعادا متلازمين كما كانسا ، قد زالت بينهما كل الحواجز حتى حاجز العقل .

وكان الامر الى هنا غريبة من غرائب المصادفات ، على حد تعبير الدكتور عبد الله ، رواية القصة . ولكن الصدفة ايضا شادت للدكتور عبد الله ان يلتقي بعد بضع سنوات بلطفية ، الفانية التي هام بها

«الزوج» أيام الدراسة الجامية ، فروت للدكتور عبد الله الشطر الناقص من القصة . قالت :

— بعد ان سقط شرف الدين في صفه لحقت حافظ وعشت معه في بيته ... وقد اراد مرة ان يبين لي قدرتي عنده فقال لي انه في سيبي ضحي بصدقه الصدوق شرف الدين ، وذلك يوم الامتحان عندما وجه الفاحص الى شرف الدين سؤالا كان يجعله هذا الاخير ، فالتفت الى حافظ يستنجده ، فاغتنم هذا فرصة ذهل فيها الفاحص واعطاه الجواب المفلوط عن عمد وتصميم . كان السؤال يتعلق بقشر الكينا او حب الكينا ، لا اعرف !

وهكذا انتقم محلول الكينا، واي انتقام ! ساق حافظ صديقه شرف الدين الى الخطا في ساحة النظريات ، واخطا هو عين الخطا في ساحة العمل ! حقا ان للنفس الانسانية اسراراً مغلقة بالف غشاء وغشاء ! ولتترك راوية القصة يلخص « الرؤيا » لنفسه ولصادقائه . « كلما تأملت يا اصدقائي هذه القصة العجيبة كما اتضحت لي في شكلها الاخير انتابني الدوار . اذ يخيل الي ان في ثنايا حلتها المعقدة بتصاريف القدر وتوافق المصادفات خيوطا من الترتيب المنطقي المحكم ، فاطيل البحث فيها عن السبب والمسبب والمقدمة والنتيجة حتى اكل واتعب . ولقد نفقت يدي من الوصول الى الحقيقة فسي حوادنها الغريبة ولكنني اسوقها اليكم كما عرفتُها وعرفتُها لطيفة نادرة من نوادر الحوادث وعجيبة من عجائب الحكايات فيها عبرة لمن اراد ان يعتبر والفلسفة لمن شاء ان يتفلسف » (١)

واذا كان المرض يقدم جوا مثاليا لاسراز التعارض والتناقض بين الرؤية والرؤيا ، فان المرض ايضا بما يحدثه من اختلال في قوانين الجسم المادة المعروفة والرؤية يمكن ان يكون السلم الذي به ترتقي مراقي الرؤيا ، والمفتاح الذي به نقتحم عوالمها الجنحة التي لا تكون شفافة الا لمن تحرر من قوانين المادة والحياة في جسمه . ومن هذا القبيل قصة « حمى » المكتوبة بأسلوب اليوميات والتي لا يعتمد سردها مع ذلك على التقويم الزمني وانما على ما تسجله درجات الحمى من ارتفاع وانخفاض في جسم ذلك الاخ الذي قتل اخاه غيرة وحسدا في نوبة شديدة من الحمى . فلكان الحمى حررت الجسم من عقابه فأقدم على اقتراف ما لم يكن ليقترفه بتاتا فيما لو ظل خاضعا لقوانينه المألوفة التي من اولى خصائصها التمييز بين الخير والشر . وبغض النظر عن جريمة القتل ، الدنيئة كل الدناءة في مقاييسنا نحن البشر الاصحاء ، فلننظر اي عالم اسطوري ارتفع اليه الاخ القاتل على اجنحة حمائه التي كانت قد تجاوزت الدرجة الاربعين :

« لقد قتلت اخي ثم اخذت اصعد في الجو . اني اسمع خفق الاجنحة وارى الارض تنأى عن عيني . ايها الجناح الخفاق ايسن تمضي بي ؟ انك تخترق بي اجواء من لهب والسنة من نار لا دخان فيها ولا قفار . ان في رأسي عاصفة ، وعيناي ننانا من وقبيهما وهما تتطلعان الى اغوار العالم الذي تطير بي فيه . علام تسرح ؟ اتريد ان تهرب من الزمن او تبغي الخروج من الوجود ؟ لا أشنكي الا جفاف الفم وحرقة البلعوم . ايسن بين اطباق السماء ماء ؟ ايها الطائر حنايك . اما ان لي ان أشنل لها في هذا الجحيم؟ كلما امعن الجناح الخفاق في الصعود زاد السعير وقدا . يخيل لي اني اسمع حفيف افلاك النجوم في دورانها وارى انقضااض الشهب والرجوم . اهذه تخوم الكون وحدود الوجود ؟ »

وعندما تهبط حرارة الحمى ، يكون السقوط واكتشاف الجريمة : « رباه رحمتك ، لقد هيض الجناح وتمزق . ابة هوة هذه التي

أتدري فيها ؟ اني ارى العوالم التي اجتزتها في سعودي واحدة اثر واحدة تتراجع في عيني . النجوم ، وتلوح لي الارض ، ثم الذرى ، ثم السفوح ، وحسن المسجى ، وهند الباكية ، وجريمتي ، وحماي . لقد سقطت في مستنقع آسن . اماء » (٢) .

وقصة « النوبة القاتلة » تؤكد هي الاخرى ما في المرض من قوة عجيبة لا يتمتع بها بحال من الاحوال الجسم الصحيح المعافى نفسيا وماديا ، المرض كمسكاة نزل منها على عوالم لا يمكن لابصارنا الحسيرة ان تشق حبسها ، وكمفتاح الى مفارة عجيبة لا تعقلها ولا تنظم الحياة فيها النواميس الطبيعية المعروفة لدينا ، او بالاحرى المألوفة لدى خلايا دماغنا القاصر العاجز عن ان يرى الحقيقة العليا ولو كان ارتفاهها عن الحقيقة البتذلة قيد انملة لا اكثر . وما « النوبة القاتلة » الا داء الصرع ، ذلك الداء الذي سمي في الماضي بالمرض الالهي لانه لا يصيب ، كما كان يسود الاعتقاد ، الا المتلهين من البشر ، العابرة الذين يقض لهم ان يروا ، وبتصبير صوفي ، ان يعاينوا ما لم يقبض لنا نحن البشر العاديين الاسوياء ان نراه او نعاينه .

وابطال « النوبة القاتلة » اربعة : الطبيب ، راوي القصة كما هي الحال في قصص العجالي جميعا، وعبد العزيز افندي الموظف المنفى في بلدة صغيرة ، وزوجته ، وصديقه سليم الداني . اما محور القصة فهو العلاقة الائمة القائمة بين الزوجة والصدوق من غير علم الزوج . والطبيب الراوية هو وحده الذي كان على معرفة بهذه العلاقة ، ولهذا فانه هو وحده الذي أتبع له ان يعرف الحلقة المفقودة التي تستطيع هي وحدها ان تقدم تفسيراً « معقولا » لما سيحدث . وما سيحدث سيقف كل الناس عاجزين عن فهم بواعثه واسبابه ، حتى القضاء الذي كان يهمه اكثر من اي جهة اخرى ان يعرف البواعث والاسباب تلك . ولتترك للطبيب الراوية ان يقص علينا ما حدث ، وان بتفصيل قد يجده بعض القراء مملا ، ولكنه ضروري :

« في عصر احد الايام كنا في حلقة ضمت معظم موظفي بلدة (م) نستمع الى الحديث الشائق المزحوم بالفكاهة الذي كان يديره علينا سليم افندي الداني . فكانت مني التفاتة الى عبدالعزير افندي وهو في مجلسه مثلنا قد القى بكل سمعه الى الحديث فرأيتيه وقدامحت منه الكتابة التي كانت تظلل في معظم الاوقات وجهه الصارم التقاطيع ، فبدا صبوح الملامح لامع النظرة منبسطة الجبين وارتسمت على شفثيه المثلثتين ابتسامة فذة كانت تمثل فيها قوة نفسية غريبة ، بسدت لعيني طافحة من كل ملامحه . وبينما كنت ايسم كغيري لما كان يرويه لنا سليم الداني رحت اسائل نفسي عما كان يقوله او يفعله عبدالعزير افندي لو درى بالحديث الذي حدثني به سليم البارحة عن زوجة هذا الاول ، في لحظة من لحظات زهوه بتهافت النساء عليه وعشقهن له . قلت لنفسي ان عبدالعزير سيقول سليمان او يقتل المرأة ولا شك . وبفتة ، او في سرعة تشبه البفتة ، بدا لعيني ان تبدا غريبا قد اصاب عبدالعزير افندي ، فقد شحب وجهه وجمدت الابتسامة على شفثيه وتصلبت النظرة في عينيه وهو يتحدث في وجه سليم افندي . ثم زاعت نظرائه لحظة ورأيتيه يبلع ريقه ويقبض بيديه متشجعا على مسندي كرسيه . وقبل ان يفتن احد غيري الى هذا التسلسل المفاجيء انبعت عبدالعزير افندي من مجلسه واقفا بسرعة اللولب وانطلقت من حجرته صيحة قصيرة محشجة اجفل لها الحاضرون ثم لم يلبث ان تطوح ووقع كتلة واحدة في مكانه ، فسمعت بين ضجيج الكراسي المتداعية خلف الناهضين وصيحات الدهشة والعجب رئيس اصطدام رأسه بارض المقهى الحجري ، واضحا عاليا . »

وقد نظن للوهلة الاولى اننا امام نوبة صرع عادية . وهذا ما ظنه ايضا الطبيب ، راوي القصة ، الذي حاول ان يخفف عن صاحبه عبدالعزيز وطاة الداء بتوكيده له ان مثل هذا الداء ينزل عادة بالاذكياء والمبرزين منهم . ومع ان تلك النوبة لم تكن الاولى من نوعها الى اصيب بها عبدالعزيز افندي الا انه يصارح صاحبه الطبيب بان ما حدث له هذه المرة يختلف كل الاختلاف عما كان يحدث له في المرات السابقة :

- اريد ان احدثك بالذي رأيته ساعة ان وقعت وقمتي تلك في المقهى . لقد قلت لي انك كنت ترافقني حينذاك فرأيت بصري قد زاغ ووجهي قد شحِب . واحسيني قادرا على القول اني كنت حتى تلك اللحظة التي تصف واعيا شاعرا بما حولي . وفجأة نبت لعيني وأنا احدث في وجه صديقنا سليم ملامح شاحبة لصورة مألوقة لسدي . واخذت تلك الملامح تتضح بسرعة وتبرز امام ناظري حتى خيل الي اني اراها شفاف عن وجه سليم او اني ارى وجه سليم يشف عنها ، وحينما انطلقت من صدري تلك الصيحة كنت قد تبينت تلك الصورة وعرفت صاحبها .

- صورة من كانت ؟

- صورة امرأتي

ومضى على هذا الحادث ما يقرب من عام حاول فيه الطبيب عبثا ان يخفف وطاة الداء عن عبد العزيز افندي .

ولقد توطدت بين الرجلين صداقة قوية لسم يكن ينقصها سوى علم الطبيب بالصلة الائمة التي ازدادت توثقا بين سليم الداني وزوجة عبدالعزيز . وما كادت عشرة شهور تنصرم حتى لاحت على عبدالعزيز علائم القلق التي هي عنده بمثابة نذير مسبق بنوبة جديدة من نوبات الصدع . ولقد جاءت النهاية ، على حد تعبير الطبيب الراوي ، «فاجعة بشيئة ، نضم في ثانيا تلك الجريمة المروعة مثالا جاوز كل ما كنت افدره عن قوة النفس اذا ما غلى مرجلها ، قوة على العلم : باختراق الحجب الصفيضة القائمة امام عقلا الواعى وحواسنا القاصرة ، وعلى العمل : بتحريك جسمنا المادي نحو غايات لجمنا عنها في اثناء حياتنا العادية بالخوف والعرف اللذين اعتدنا على دعوتهما بناموس الاجتماع » (1) .

اما الجريمة المروعة التي ورد ذكرها على لسان الطبيب فهي ، كما امكن للقارئ ان يتوقع ، الجريمة التي اترفها عبدالعزيز افندي عندما اطبق بيديه القويتين على خناق صديقه سليم الداني فأخمد انفاسه ، اثناء نوبة الصدع التي انتابته . اما لماذا خنق عبدالعزيز افندي صاحبه سليم الداني ، فهذا ما لا يعرفه هو نفسه ، وان كان يعرف بالتفصيل كيف اقترف جريمته . ولنترك الكلام له :

« اني أكاد أجن . لقد انتهيت الى الاعتقاد بانني قاتل سليم الداني لانك انت وخادمك وكل الظروف نقول بذلك . ولكنني اقسم لك بكل ما تريد اني لا ادري من قضية القتل هذه شيئا . استحلقت بالله هل تعرف لي دافعا الى هذه الجريمة ؟ ألم تكن صديقين متآخيين ؟ سافص عليك كل ما جرى لاني اريد ان تثق بانني ضحيئة للقدر مثل سليم المرحوم سواء بسواء ، وانني لست ذلك المجرم الذي صوره المدعي العام للمحكمة والذي رأيت الحكم عليه في نظرات القاضي . » (لم استطع النوم بعد ان فارقكم الا بعد ان تناولت قرصا مما اعطينته . وفي الصباح قمت ناشطا فليست ثيابي ثم جلست وزوجتي نتناول الشاي . وكنت اصفي الى حديثها وانا احس ثورة في صدري . وبينما كنت اتطلع الى وجهها رأيته يتعكر فجأة وتبدو عليه انطباعات ملامح غريبة اخذت تتوضح شيئا وراء شيء . أتذكر حادثتي تلك في المقهى ؟ لقد كانت هذه اختها . وكان الوجه الذي رأيته هذه المرة

(1) : المصدر نفسه - ص 81 .

منطبعا على وجه امرأتي وهو وجه صديقنا سليم . .

وشعرت بدمي يفور في عروقي وان صدري يكاد ينفجر غيظا . ولا بد من ان تكون زوجتي قد لاحظت ذلك اذ سمعتها تسألني بصوت الخائف الفرع : عبدالعزيز ، ماذا جرى لك ؟ ولم التفت الى قولها اذ خيل الي ان شفتي صديقي تنفرجان عن ابتسامته مزه بفيضه وانسي كنت مفضودا بذلك الهزم . ففقت وأنا أهم بشيء ، ولعلي صرخت كما صرخت نلتك المرة قبل ان افح على الارض ، ولكنني منذ فمت من مجلسي شعرت بانني فقدت رشدي كاملا . ان بعض المارة قد شهدوا بانهم راوني أسير بخطى ثابتة مفر الوجه مزبد الفم في الطريق ، ولكني اؤكد لك يا صاحبي اني لم استرد وعيي الا وانت توفظني من سباني ونسألني عن جريمتي ، اهي جريمتي ام جريمة القدر ؟ لقد صرعتي هذا الداء نوبات عديدة فلم أضرب احدًا ، فلم صب القدر كل نغمته على حياة صديقي بيدي هانين ؟ أأكون مجرما ثم تكون جريمتي قتل اعز الناس الي والصديق الذي اصطفينه من هذا البلد ؟ انبئني يا صديقي ، قل ! » .

وبالطبع لم استطع صديقه الطبيب ان ينبئه بشيء ، مع انه الوحيد الذي وضع يده على سر الحلمة المفقودة وادرك لم اصطفى عبد العزيز ضحيته اصطفا ولم يعتد على غيره من الناس في الطريق ؟ وما الفائدة أصلا من ان ينبئه بالحقيقة ويقول له انه اصطفى سليم الداني بالقتل لانه كان يدوس عرضه ويخونه مع زوجته ؟ ان عبدالعزيز نفسه سيرميه بالكذب «لانه لا يعرف الحقيقة الا في اللحظات القليلة التي يركبه فيها داؤه الالهي فيمزق عن عينيه حجب الحياة الشريئة العادية » . فهل من فائدة يجنيها هذا المسكين لو هتك له السر سوى ان يفضحه في زوجته ويزيد ليالي سجنه ظلمه وعذابا ؟ ولعل الفائدة الوحيدة المجتناة من الثمن الباهظ الذي دفعه عبد العزيز عن جريمته اللاواعية - 10 عاما سجنًا - هي الفائدة التي نستطيع نحن قراء العجيلي - ان نستخلصها من تلك القصة الغريبة ، قصة امرئ يخرج «من بينته هادئا في الصباح المشرق فيسير فرابة ربيع ساعة ، ويلقى اناسا على طريقه فلا يعارضهم بخير ولا شر ، ثم يقرع بابا يفتحه رجل غافل فيقتله خنقا » لانه رأى صورته منطبعة على وجه زوجته مثلما انطبعت صورتها هي على وجه ذلك الرجل قبل عشرة شهور ، كل ذلك وهو اسير نوبة صرعه . انها كما ترى قصة « لايقبلها عاقل ولا يفرك عليها طبيب » ، ولكنها مع ذلك اقرب القصاص الى العقل اذا ما ارتضى هذا العقل ان يسير في الطرق الغريبة التي يرسمها له العجيلي ، بشرط ان يحذر نفسه من القشاة الصفيضة التي ضربت بنسجها حول الخلايا الرمادية فأعتمتها عن رؤيئة الحقائق العليا ولم تأذن لها بان ترى الا ما اذن لسائر الناس ان يروه ، أقصد الناس الذين اصاب الروتين والعرف والتعود ابصارهم بالكلمه فهي تبصر ولا ترى ، وترى ولا تعانين ، وتكتفي بالرؤيئة ولا تشرق بالرؤيا .

فلنصبر باعين جديدة . هذا ما يطالبنا به العجيلي ، وهذا ما تحثنا عليه كل قصة من قصص « بنت الساحرة » ، ذلك اننا اذا ما استبدلنا ابصارنا الحسيرة بفعل الروتين اعينا جديدة ، اوبالاحرى عضولا جديدة ، فنحن لن نرى ونعاين كيف ان محلول الكينا يمكن ان ينتقم فحسب ، وكيف ان قطرات الدم يمكن ان تحدث انقلابا هائلا في الصفات الخلقية فحسب ، وكيف ان الصرع قد يكون مرضا الهيا حفا فحسب ، ولكننا سنرى ايضا ونعاين كيف يمكن للضفادع ان تنتقم في قصة « الضفادع » ، وكيف يمكن للقدر ان يجمع بين كائنين بصلة لا تقبل انفصاما حتى قبل ان يبلغ احد هذين الكائنين من العمر يوما واحدا ، وذلك في قصة « المعجزة » ، وكيف للموتى ان يقوموا حقا وصدقا في قصة « قيام الموتى » ، بل كيف يمكن

للسحر، لا السحر النفسى او سحر الایحاء الذي يقر به القرن العشرون، وانما السحر الحقيقي الذي حاكت اساطيره القرون الوسطى وما قبل الوسطى ، اقول كيف يمكن للسحر الوسيطى هذا ان يفعل فعله ويأتي اثره حتى في القرن العشرين الذي نزهو باننا نحيا فيه ، وذلك في قصة « بنت الساحرة » القصة الوحيدة في المجموعة التي ليس فيها اطباء او مرضى وانما غريبة ساحرة كالفجريات اللائي عرفنا بهن الادب الشعبي او الادب الموروث عن حضارات توصف اليوم بانها غير عقلانية .

والحقيقة ان قصة « بنت الساحرة » بتفردا هذا بين سائر قصص المجموعة تمثل خطوة او مرحلة جديدة في ادب العجيبى . فلكان العجيبى قد استنفد جو الطب والمرض وما يمكن ان يوحي به من ظاهرات لا يمكن تفسيرها بفانسون العقل وحده ، فعاد الى جو اكثر اصالة هو جو البادية السورية الذي فيه نشأ وترعرع قبل ان ينتقل الى جو الطب اثناء دراسته الجامعية . واذا كان جو البادية يضيق مجالاً بحكم طبيعته عن الرؤية بمناها العلمي ، فانه بحكم من طبيعته ايضا ارحب الاجواء اتساعا للرؤيا . والواقع انه ما من ظاهرة طبيعية تمتزج فيها الرؤية بالرؤيا وتمحي فيها المعالم والحدود بينهما كظاهرة السراب التي هي بالتأكيد ظاهرة علمية ترجع الى شدة حرارة طبقات الهواء او الى عدم التساوي في كثافتها ، وبالتالي الى عدم التساوي في خط انكسار اشعة الشمس . ولكنها في الوقت نفسه ظاهرة وهمية لا وجود لها الا بالنسبة الى عين الناظر . والسراب ، هذا الشيء الموجود وكأنه لا موجود ، او بالاحرى هذا الشيء اللاموجود وكأنه موجود ، هو من اكثر من وجهة نظر واحدة كلمة السر التي تلخص عالم العجيبى وتفتح مغاليفه او جواز المرور الى مكنونات مغائره وكنوزها . وما « الظهيرة » ، اروع قصص مجموعة العجيبى الثانية ، « ساعة اللازم » ، الا قصة سراب ، سراب عاينه مزيد، الجندي الهجان ، وعائناه نحن معه ، ثم لم يعد يدري ، ونحن معه ، ما اذا كان السراب حقا سرايا والوهم وهما . واني لمزيد ، ونحن معه ، ان يميز بين السراب والحقيقة وسط تلك البادية المحترقة المحترقة بلطى الهجيرة ؟ كان الهجانة ، رفاق مزيد ، قد غربوا منذ الصباح وتركوه في الخباء وحده خفيرا ، وكانت « الشمس تنقد والارض ملتية ، وفي دائرة فطرها مد البصر من تلك البادية المحترقة بنار الظهيرة لم يكن يتنفس حي او يمتد ظل ... وكان يضطجع في رواق الخباء فيشعر بالسموم تخترق فرج الرواق كأنها انفاس تعابيين تفتح في مسمعه وتلفح وجهه . اما اذا مد بصره الى السهل المنبسط امامه فان الهواء كان يلوح له في جو ذلك السهل كأنه السنة متوهجة من لهيب ابيض ، والتراب كأنه حميم يغلي تملوه ابخرة لا ترى ولكنها تحس . وكانت تتراعى لعينيه بقع من السراب متفرقة على مد البصر كأنها بحيرات لجينية من ماء صاف ، وكلما تقدم النهار اجتمعت تلك البحيرات واتسعت . ويا لها من بحيرات عجيبة تغور وتغلى ويتلاطم موجها ويتطاحن بين نظرة من مزيد وكرة من عينه عليها » (١)

ولم يكن له من سميع في وحدته وفي حرارة الهاجرة غير خود، او بالاحرى طيف خود ، تلك الصبيبة الفرعاء المشوقة، اللينة القد، التي « في عينها سحر وفي عضدها الابن سوار تخين من زجاج ازرق » .

لقد عرف مزيد خود في قرية على الفرات ، وكان يميزها عن سائر لداها « طول ووثوب نهدين ورنين ضحكة » . ولقد جمعها ذات ليلة اياها من مراح الفم ، فجاذبها حديث الفزل فما تابت ، واحتضن كفها في كفه فما تمنعت ، لكنها صدته ضاحكة حين حاول ان يقبلها . ولقد ظلت تلك القبلة التي ما نالها حسرة حياته التي ما بعدها حسرة . ولكم يحلو له الآن ، وهو في خبائه ينلوى تحت

للى الظهيرة ، ان يغمض عينيه ويثصور ...

يتصور تلك الهناءة التي لم تكن ، تلك القبلة التي لم يقض له ان يطبعها على خد خود الاسجج اللامع في شقرة محروقة المزدان بوشم صغير كأنه زهرة برية ، او على ثغرها الاليس المصوم على شفاه عليا نائثة وسغلى غليظة تملأ الفم والقلب .

« ملات رأسه وصدرة وخياله تلك القبلة الضائعة فكان وهو يتحرق ندما عليها وشوقا اليها يكاد يحس بشفتي خود بين شفتيها ويضم قدها اليه » . ولكنه ما يكاد يسترسل في حلمه حتى يوظفه لسع حديد الخيمة المحمى . وفيما هو كذلك ، بين الحلم واليقظة ، هرت بخيائه فافلته انفصل عنها احد رجالها وتقدم من مزيد وهولت لها نال على مسا به من عطش . فقام اليه مزيد وقدم اليه بغيته ، فعب الرجل حتى ارتوى . ثم انبطح على تراب ارض الخيمة المروية ظلا . وبعد هنيهة من الزمن قال الرجل وكأنه يريد ان يكافئ مزيد اعلى جميله :

— اعط يدك للشيخ عبدالله ليرى حظك .

فمد اليه مزيد كفه فتاملها الشيخ عبدالله مليا ثم قال :

— في كحك بنت واي بنت : طويلة ، شعرها لامع ، مقرونة

الحاجبين . وفي نفسك من هذه الخولة شيء .

— ما هو ؟

— قبلة ...

فارتجف مزيد الذي عادت الى ذهنه خواطره عن القبلة التي فاتته

من ثغر خود . ولكن الشيخ عبدالله تابع :

— كم تدفع في قبلة من خدها ؟ .. هل تدفع هذا البرنس

الاحمر ؟ (٢) .

فقال مزيد وهو يحسب المسألة مزاحا وهزلا :

— نعم .

ولكنه ما وجد الا والشيخ عبدالله قد اقتاده من يده خسارج الخيمة . فسار به مزيد والابتسامة على شفثيه . « احس بالشمس من فوقه تلهف بوقدها وبالارض من تحته تغلي بحرها . وحدث نفسه بالرجوع الى الخيمة ولكن عينيه غامتا بالوهج ورأسه دار من الحر .

وبدا من ان يسير الى الظل تطلع الى السراب فرأى فيه شخصا يتقدم من بعيد . وذلك اجفانه ثم فتحها ليشبث الشخص ، فراه ان ان تبدى له قد امرأة .. ووجف قلبه .. ولم يصدق عينيه ، فقد كان يعرف ذلك القد ويعرف صاحبتة . ان هذه التي انفصلت اليه من سراب الصحراء مقبله عليه بقامة فرعاء وشعر وصف وخذ يزبه وشم كزهرة الخاون البرية وشفتين خلقتا للقبل لم تكن ... غير خود ، خود حبسبة القلب ! » .

وبنقلة بارعة من الراوي نجد انفسنا ، بعد ان بلغت القصة ذروة توترها ، في المستشفى العسكري حيث يعالج مزيد من ضربة الشمس التي كادت تقضي عليه . والى جانب سرير مزيد كان يقف رئيسه الملازم والشيخ عبدالله الذي وجهت اليه تهمة سرقة البرنس الاحمر فطلب شهادة مزيد مؤكدا انه انما ابتاعه منه :

— أنا اشتريت وهو باع .

— بكم اشتريت ؟

— اسأله يا سيدي . اسأل مزيد !

وما كان مزيد يقادر على الإجابة وان كان قادرا على السمع . وكان « مغمض العينين وكأنه في غيبوبة . ولم يكن في الحقيقة كذلك ، ولكنه وهو مغمض العينين كان أقدر على استعادة ما رآه منذ ايام في حر الظهيرة في البادية . كان السراب في عينيه المغمضتين يهوج موجا بينما كانت خود تخوضه اليه . أيخدع عن خود وهو الذي فضى ليايله

(٢) : جزء من زي الهجانة السوريين .

(١) « ساعة اللازم » - دار العلم للملايين - ص ٦٤ - ٦٥ .

في تذكرها وتريد صور كل حركة من جسمها الموقوف لعينيه ؟
لقد كانت تخوض السراب اليه مخاضه اليها حافيا ملهوبا .
ولما التفتيا في تلك البادية القفراء وحدهما لا رقيب عليهما الا
الشمس المنقذة ضمها الضمة التي كانت تملأ نفسه شوقا ونوفا ، وتمتع
بالقبلة التي فاته منها ليلة آبا وحيدين من مراح الفهم ، نعم ،
لقد قبض الثمن ، ثم البرنس ، فلماذا ينكر ذلك على الشيخ
عبدالله ؟ » .

وكان صوت الملازم ما يزال يعلو مكررا :

– مزيد ، أجبني . هل صحيح أنك قبضت ثمن البرنس ؟ هل
تعرف عقوبة من يبيع شيئا من تجهيزاته العسكرية ؟ ثلاث سنوات في
السجن المنفرد ؟ أجبني : أصحيح ما يقوله هذا الفجري ؟
فجمع مزيد ((قواه ليخرج بنفسه من حلمه الجميل ، ورفع رأسه
قليلا ليقول بصوت ضعيف مستسلم :

– صحيح يا سيدي الملازم . لقد قبضت الثمن !

هل كان ما رآه مزيد سرايا ؟ ان هذا سؤال لن نتلقى عنه
جوابا ابدا . ومهما تكن فئاعتنا ، فلن نجد له ابدا ايضا
تفسيرا . ان العالم الذي أطل عليه مزيد للحظات فرأى منه ما رأى
هو غير عالمنا الذي نحيا فيه بالفقه وباطمئنان تبعته فينا تفتنا بسان
قوانين ونواميس ازلية مكيئة تحكمه وتنظمه . فماذا يحدث لو ان
عالمنا الوطيد الراسخ هذا قد انفلت عقاله من قوانينه ونواميسه؟
قد يقال ان هذا مستحيل ، وهو حقا مستحيل ، اللهم الا اذا
طرا اختلال على المنظور المتمدن اليه ومنه اليينا . وليكن هذا الاختلال
مجرد تخلخل في طبقات الهواء او عدم تساوي انحراف الاشعاع
الشمسية ، فمعدنذ يمكن لاي منا ان يعاين ما عاينه مزيد وما كان
ان يودي به الى حافة الموت او الجنون .

ان الكون المحيط بنا هو الذي يصاب ببعض الاختلال في
قصة ((الظهيرة)) . ولكن هذا الاختلال قد يكون فينا احيانا وفي
نظرتنا الى الكون المحيط بنا . وهذا ما تصوره قصة ((الحب والابعاد))
وراويتها الذي يرى العالم على غير الصورة التي نراه بها نحن لانعينه
اليمنى من زجاج . ومن كان يرى العالم بعين واحدة هو غير الذي
يراه بعينه الاثنتين . فالعالم عند ذلك لا يعود ذا ابعاد ثلاثة ، وانما
يتقلص الى بعدين اثنتين : الطول والعرض . اما البعد الثالث ،
الثخن ، فلا يعود له وجود لانه ليس الا نتيجة لعدم التوافق بين
الصور التي تعكسها كل عين من عيني الانسان .

وعلى هذا فان البعد الثالث الذي نراه نحن الاسوياء النظر
بلا جهد ولا تكلف ، لا يراه ذو العين الواحدة الا وهما وبعد جهد
ولا ي . ولكن من هنا على وجه التحديد يكتسب العالم عمقا لا نعرفه
عنه نحن معشر ذوي العينين . فنحن لا نرى للعالم عمقا لان عمق
العالم بات امرا مألوفاً لدينا . أما ذو العين الواحدة فانه بحاجة
ماسمة ودائمة لان يهب العالم عمفا من نفسه وباطنه ما دام بصره لا
يرى العالم الا مسطحا . ويحق لنا ، والحالة هذه ، ان نتساءل من منا
يرى العالم على حقيقته : نحن معشر ذوي العينين ام راوية القصة ذو
العين اليمنى الزجاجة ؟ وعندنا يخاطبنا راوية القصة قائلاً : ((ابي
لا ادرك الا وهما ذلك البعد الثالث الذي تتحدثون عنه انتم معشر
ذوي العينين ، فكل ما في في الوجود عندي صورة مسطحة لا تنوء
فيها ولا بروز . فارت لي يا صاحبي لاني اعيش في عالمي ، ذي البعدين ،
الضيق ، بينما تعيشون انتم في عالم طويل عريض عميق ، ذي ثلاثة
ابعاد)) (1) اقول عندما يطالبنا هذا الراوية بان نرتي له ، لا

(1) : المصدر نفسه – ص ٣٢ . – ولعله من المفيد ان نذكر ان
الدكتور عبدالسلام المعجلي يشكو فعلا من ((العاهة)) نفسها التي
يشكو منها راوية ((الحب والابعاد)) .

ندري يخاطبنا بالجد ام هو يهزأ بنا لاننا نحن الجديرون
بالرثاء والشفقة اذ ان الفتنة مع عمق العالم قد افقدتنا الاحساس
به كما افقدتنا الحاجة الى أن نهب العالم عمقه من انفسنا لا من
ابصارنا وحدها . وبالفعل ، من منا يستحق الرثاء : نحن الذين لا نرى
من العالم غير ما اعتاد الناس من امثالنا ان يروه باعينهم الحسيرة ،
ام راوية القصة الذي أصبحت ((الرؤيا)) جزءا لا يتجزأ من وجوده
اليومي والذي كانت له مع ((هندية)) قصة قريبة الشبه للغاية من
قصة مزيد مع خود ؟

وقصور العقل البشري كاداة . وحيدة للدراك والفهم والتفسير
لا يتجلى على صعيد العلاقات الانسانية وحدها . بل لعل قصور ذلك
العقل على صعيد هذه العلاقات أصبح امرا معترفا به حتى على صعيد
العلم الرسمي . وكل المذاهب للاعقلانية التي ولدتها الفلسفة والاداب
على مر الاحقاب لم تكن الا محاولة لتدارك ما قصر عنه العقل .
ولقد اعيد اليوم للاعقول اعتباره حتى من قبل المذاهب الاشد
تمسكا بالعقل والارسخ ثقة بقدرته على سير الاغوار ، كل الاغوار .
ان العلم الحديث يقر اليوم بلا صعوبة ببعض الظواهر للاعقلانية
كالايحاء والتلبيات والتنويم المغناطيسي ، بل هو لا يحجم عن استخدامها
كطرائق عقلانية في الطب النفسي على سبيل المثال . وهذا لا يعني
بالطبع ان الشعوذة قد استبعدت نهائيا عن هذه الميادين . وليس
من المستبعد ايضا ان نجد هناك من قد يفكر بتوجيه تهمة الشعوذة
الى الدكتور المعجلي . ولكن موجة هذا الاتهام سيكون قد تناسى
حقيقة اساسية وهي ان الدكتور المعجلي لا يكتب كعالم ، وانما
كاديب ، ان قصة كقصه ((الفغاز)) مرفوضة حتما وسلفا من
وجهة نظر العلم ، هذا العلم الذي قد يقر باللاعقول على صعيد
العلاقات بين انسان وانسان كما فلنا ، والذي يرفض في الوقت
نفسه وبشدة وجود اللاعقول على صعيد العالفة بالمادة والجماد .
ومع ذلك فان ما تحاول ان توحى به قصة ((الفغاز)) هو ان الجماد
يتمتع ببعض الخصائص الانسانية من ارادة ورغبة وعاطفة . فلقد وقع
نظير راوي القصة على فغاز معروض في واجهة احد الجوانيت ،
فراه واراد شراؤه . ولكن الثمن الباهظ الذي طلبه فيه البائع جعل
صاحبنا يصر في النظر عن شرائه . بيد ان الفغاز على ما يبدو
راقه صاحبنا بدوره فاراد ان تنتقل ملكيته اليه وفرض ارادته هذه
بقدره قادر . ولقد كان لهذا الفغاز من الحوادث مع صاحبه الجديد
ما جعل هذا الاخير يشك باحكام العقل البشري ويؤمن بان «هناك
غير قوانين المادة مسيطر على هذا الكون» .

وهكذا فان الحد الفاصل بين الانسان والجماد يتداعى ويسقط
اذ كيف «نجزم اننا كاناسي نفوق الجماد بميزة مسا ؟ اليس هو
العقل الانساني الذي يدعي ذلك ؟ ولكن من ذا الذي يستطيع اقتناعنا
بان العقل الانساني ميزان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟» (٢)
واذا لم يكن قانون السببية الا وجهها واحدا من بين وجوه
الحقيقة الالف ، واذا كان هناك من يخرقه في عالم العاقلين والاحياء
كما برهنت على ذلك قصص المعجلي الاخرى ، فما ادرانا ان
الجوامد لا تملك ايضا مثل هذه القدرة كما تثبت ذلك قصة
« الفغاز » ومن قبلها قصة « صروع الناي » ومن بعدها قصة « سلال
الدم » ؟ هل تصورون نايما من القصب الهندي تعجز رياح الاعاصير
عن تصديعه اذا ما نفخت فيه ، ومع ذلك تصدعه بل تحطمه انفاس
العاشق اذا كان كليم الفؤاد جريح النفس ؟ وهل تصورون مضخة
ماء صنعت من الحديد الاصم ، ولكن محركها يابى مع ذلك ان يدور
الا اذا سال الدم في ساقية الماء ؟

ان الانسان ليس وحده في هذا الكون ، كما ان هذا الكون لا تحكمه القوانين والنواميس المعروفة للعقل البشري وحده .

والمسألة ليست مسألة ادلة وبراهين . والعجبي لا يطالبنا اصلا بان نؤمن حتى نطالبه نحن بدورنا بالادلة والبراهين . انما العجبي راوية . وليس من فرض على الراوية الا ان يخلق الجو المفتح الذي تدور فيه الحادثة التي يريد ان يرويها . ونحن احرار بعد ذلك في ان نؤخذ او لا نؤخذ بالجو الذي رسم لنا . وسواء من وجهة النظر هذه ان كان الجو واقعا او اسطوريا . انما المهم ان نؤخذ به . ولعل براعة الفنان الكبير تكمن في اضطراره ايانا على ان نؤخذ بالجو الذي خلقه وان كانت عقولنا وملكاننا المنطقية ترفضه وتباه . وذلكم هو شأننا مع رائحة العجبي « فناديل اشبيلية » .

ولان هذه الرائحة لا تصدو ان تكون اكثر من جو ، لذا فانها تتردد على التلخيص . ان من حق كل قارئ ان يراجع نفسه ويسائلها بعد انتهائه من مطالعة هذه القصة : هل ما قرأته ممكن ؟ هل يمكن للعقل ان يصدق ؟ هل يمكن لهذا ان يحدث ؟ اجل ، ان من حقه ان يطرح مثل هذه الاسئلة ، ولكن بعد ان تكون خلايا جسمه قد انتفضت بتلك الرعشة التي يندر ان يحدثها فينا حتى العمالقة من الكتاب العالمين . وسواء اكننا من العقلايين او من رافضة العقل فاننا لا نجد فككا من ان نؤخذ بذلك الجو المسعور في تلك الدار القريبة الطراز من ذلك الحي العتيق من تلك المدينة الاندلسية ، اشبيلية . دار مشربلة باحلام الماضي ، فيستطيع كل من كان به حين ان يراها على الوجه الذي يحن اليه . دار تمحي في فاعتها ذات القناديل الفامضة الاضواء الحدود بين العقل والجنون ، فلا ندري هل نؤخذ بسحرها ونتجرد من رداء العقل كما فعل « السيد » ، السيدو ذلك العربي المغربي الذي قدم الى اشبيلية باحثا عن آثار اجداده الذين استوطنوا الربوع الاندلسية ثمانية قرون ، ام نهرب منها ونججو بعقولنا مضمحين بسعادة لا يمكن للعقل ابدا ان يعرفها كما فعل ذلك العربي السائح ، راوية القصة ؟

لان ندرى . ولن ندرى . انما الشيء الوحيد الاكيد هو ان رعشة عارمة ، مشحونة بالكهرباء ، ستمتلك خلايا جسمنا كلما تذكرنا اننا طالعنا ذات يوم قصة اسمها «قناديل اشبيلية» .

و«الشباك» ؟ الا نبعث فينا هي الاخرى رعشة مماثلة بالرغم من الفارق الكبير بينها وبين « قناديل اشبيلية » في المضمون ؟ ان الحد هذه المرة لا يمحي بين الوهم والحقيقة ، بين الجنون والعقل ، وانما يبين الموت والحياة .

لقد جاء في « قصص الانبياء » كما نقل عنها الدكتور العجبي هذه القصة عن الخضر وصاحبه والموت :

« قال الخضر لصاحبه : هذا ملك الموت قادم الينا .

فاستولى على صاحبه الفزع وقال له : يا نبي الله اني خائف . ادع ربك ان ينقلني الساعة الى الهند .

فدعا الخضر ربه ، فارسل الله ملكا حمل صاحب الخضر الى الهند في ساعته .

وتقدم ملك الموت وعلى ملامحه الدهشة الى الخضر ، فقال له الخضر : ما يدهشك ؟

قال ملك الموت : يدهشني اني رأيت صاحبك هنا ، وفي لوح الازل مكتوب اني اقبض روحه اليوم في الهند » .

ولقد كتب في لوح الازل ان « عارف » سيמות في عام ١٩٤٥ .

لم يكن عارف يفكر بالموت لا من قريب ولا من بعيد . كل ما هناك انه بينما كان يتقرب في صندوق له قديم مملوء بالصحف اليابسة وبالكتب المدرسية المتبقية عثر على مفكرة كان قد سجل فيها يومياته قبل ثمانية عشر عاما خلت . وفيما هو يقلب صفحات المفكرة وقع نظره على جملة واحدة مسجلة في يوم الخامس من ايار من عام ١٩٢٧ ، وكانت تقول : ساموت في عام ١٩٤٥ ، ان شاء الله !

« جمدت نظرة عارف على هذه الجملة الغريبة كان لم يجل في خاطره انه كتبها بخطه في يوم من الايام . ثم انطلقت من فمه ضحكة وهو يذكر عالم الاخيلة والرؤى الفامضة الذي كان يعيش فيه ، بافكاره منذ ثمانية عشر عاما ، ايام كان فتى مراهقا يتلقى دروسه الثانوية » .

ولكن ضحكة عارف لم تدم طويلا . فقد وقع نظره على الروزنامة ، فاذا بها تشير الى ان اليوم الذي هو فيه هو الثلاثون من كانون الاول من عام ١٩٤٥ . اذن لم يبق غير يوم واحد على انقضاء العام ، وربما على انقضاء حياته . ولكن ماله وهذه الافكار السوداء ؟ اي جنون اعتراه في ذلك اليوم من ايام ايار ١٩٢٧ لكي يسجل هذه السخافة في مفكرته ؟ ولكن اهي حقا سخافة ام هي نبوءة ؟ وما نام ليلته تلك وتقلب على فراشه بين الحلم واليقظة محاولا ان يطرد هواجسه التي تركزت حول فكرة واحدة : ان عام ١٩٤٥ قد بقي له من الحياة يوم واحد !

يوم واحد ! هل يمكن ان يموت خلال هذا اليوم المتبقي من العام ، وهو الذي لم يمت طيلة ايام لا تحصى لسنوات عديدة خلت ؟ ولكن بم يمكن ان يموت وقد استقر به المطاف في هذه البلدة الصغيرة التي لا يحدث فيها شيء ؟ لو كان في المدينة لما آمن على حياته من ضربة طائشة او سيارة هادرة . اجل ، على يد من يمكن ان يموت هنا ؟ ومن هم اعداؤه الذين يمكن ان يفكروا بقتله ؟ انهم احد اثنين :

اما آل سعدي اذا بلغهم امره معها ، واما ابو سليمان خصمه في الارض التي تجاور ارضه . وقد لا يصوت بيد احد ، وانما فدفجر به الزائدة التي ذاق في الماضي من بعض نوباتها . تلكم هي نكسات الضعف التي بقيت للقدر في حياة عارف . . فماذا لو سعى من الضد لان يقطع الطريق على القدر فيها ؟

ومن الغد الباكر امتطى عارف صهوة حصانه ليصفي حساباته الثلاثة . ذهب الى ابي سليمان وتنازل له عن الارض التي هي موضع نزاع . واتى آل سعدي طالبا منهم يد بنتهم . ومضى الى الطبيب يستشيريه في امر زائدته فطمأنه هذا الى انها بخير . وعندما آب عارف الى بيته مساء ، كان قد قطع على القدر كل الطريق . ولكنه ما كاد ينزل عن ظهر حصانه حتى شعر باوجاع الزمته الفراش . وارسل في طلب الطبيب وكل خوفه ان تكون الزائدة قد انفجرت ، ولكن الطبيب طمأنه من جديد . الا ان وسواس الموت كان قد تسلط عليه ، فلم يفتح بما قاله الطبيب من ان زائدته بخير . وظل غير فاعح حتى . . اسلم الروح قبل ان يطل عليه صباح اليوم الاول من عام ١٩٤٦ .

بم مات عارف ؟ ان الطبيب الذي عالجه والذي لم يكن يعرف شيئا عن قصة المفكرة ، يقول لنا وقد وضع يده على مفتاح اللغز :

« بم مات عارف ؟ الاصح ان نسأل لم مات عارف ، لو ان لهذا السؤال جوابا . انه لم يكن مصابا بالزائدة ، ولعله مات بالخوف منها . مسكين عارف ، قتله مرض لم يصب به . تقول كتب الطب ويظن الناس تبعا لها ان المرض هو الذي يسبب الموت . لا تصدق هذا ابدا ،

انه لن ينجو من نوبة ثالثة . ولم ينج . ولكن ما قصه تلك الكأس ؟ انها كأس عادية كغيرها من الكؤوس الزجاجية . وكل ما هنالك انه قد نقشت عليها اسماء ممثلي مسرحية «فتاة الكوخ» التي شهدها الدكتور رشيد في فيينا ايام كان طالبا جامعا ، فأحبها وأحب معها هيلفا ، تلك الفتاة الرائعة التي ادت دور « فتاة الكوخ » . ومن تلك الكأس سقته هيلفا الدواء مرتين ، فقام في المرتين من الموت . اما في المرة الثالثة ، فلم تكن هناك هيلفا لتسعه ، ولا كأس هيلفا ليشرب منها الدواء ، فمات . والحق ان الدكتور رشيد لم يموت عندما انتابته الثالثة ، وانما كان ميتا او بحكم الميت منذ شهرين يوم حطمت الخادم الكأس بحركتها الطائشة .

وجازية في قصة « الكوكب » الم تمت هي الاخرى بالنزيف المعدي الذي ما استطاع النطاسيون ان يفهموا له سببا فيوقوه ؟ ولكن هل ماتت جازية فعلا بالنزيف المعدي ؟ قد يكون هذا اعتقاد راوية القصة ، مدرس العلوم ذي العقل الموضوعي الذي يرى ان اصل الكائنات ذرات جامدة لا تعقل ولا تعي ولا تحس ، وان الروح والحياة والعواطف كلها ليست الا تفاعلات تتبع قوانين مضبوطة ، بعضها معروف وبعضها في السبيل الى ان يكون معروفا ، للمادة الباردة الميتة » . ولكن هل يمكن ان تكون جازية قد ماتت بسبب مادي محض ، النزيف المعدي ، هي التي ترى « الحياة بعين الفتاة الحاملة وتتصور في كل كائن ولو كان ذرة رمل او قطرة ماء روحا وحياة وعاطفة » (٢) ، وهي التي اصطفت لها من بين نجوم السماء كوكبا شديد الاق يلمع ما دامت حية وسيخمد نوره مع انطفاء الحياة فيها؟

ماتت جازية بنزيف المعدة . نار داؤها في احدى ليالي الصيف فتزفت دما كثيرا ، اسود مثل طحل القهوة واحمر مثل دم الذبيحة نفسها فاعتها من فمها في منتصف الليل . ولكنها قد رأت في ذلك المساء قبل ثورة النزيف شيئا ، او قل رؤيا :

((هل تدري ماذا رايت ؟) هكذا كتبت لصديقها مدرس العلوم ليلة وفاتها) . . . رايت نجمي الالامع ، الكوكب الذي تعرفه بالقرب من الثريا واسطع من كل نجوم السماء نورا . رأيت يتطلع الي ، يمد الي السننثة النورانية فتكاد تمس اهداب عيني . . . كأنه كان يدعوني . رأيت بعد الفروب وقتت الدم في منتصف الليل ، الا تظنها دعوة ؟

وفي الليلة السابقة ليلة وفاتها الم تهجر « الفراش هائمة في سفح الجبل تتسلق صخوره فلما سئلت اجابت في لهجة بين السخرية والهذيان انها كانت تركز الى نجمها الذي لها في السماء » ؟

واذا كان الموت قد انتهى الى ان يكون هو الرؤيا الاساسية في عالم المعجلي ، فليس ذلك لان المعجلي كاتب متشائم . والحق ان مقياس التفاؤل والتشاؤم ليس من المقاييس التي يمكن ان تنطبق على عالم المعجلي . فهذا العالم هو قبل كل شيء عالم الخارق . وليس كالموت نافذة نطل منها على الخارق . ذلك ان الموت ما يزال سر الحياة الاكبر وعلامة الاستهفام الكبرى بالنسبة الى مصير كل شخص انساني . والعلم نفسه ، على الرغم مما حققه من تقدم في عصرنا هذا ، يقف عاجزا عن تجريد الموت من سره ومن طابعه الخارق . ومن هنا كان الموت احد الميادين الاساسية التي ما يزال في وسع الادب ان

بل ثق معي ان العكس هو الصحيح : الموت هو علة المرض . هذا رجل من اصحابك يجب ان تنتهي حياته . انك لو استطعت ان ترى ما لا يرى من عوامل الوجود التي تتفاعل حول هذا الرجل لاصرت الشباك نلقى عليه من كل جانب لتجذبه الى هوة المنية . فاذا اصيب بعارض بسيط ومات سريعا امام عينيك ، يهز الطبيب كتفيه ولا يملك الا ان يقول بان ميتة صاحبك كانت غير قانونية لان كتب الطب لا تجيزها . ولكن صاحبك مات مع ذلك ، لا لان المرض قد قضى عليه بل لانه لا بد من موته . كل الناس يموتون هكذا ، وهكذا مات صديقنا عارف الذي نفقنا منذ ايام قليلة ايدينا من تراب قبره « (١) .

تلكم هي المسألة كلها كما قال الطبيب : لو استطعنا ان نرى ما لا يرى . . . ولكن من ذا الذي اعطي له ان يرى ما لا يرى ؟ ومن يدرينا ، عندما يخيل اليانا اننا ما لا يرى ، اننا راينا حقا وفصلا ما لا يرى ؟ الم يكدم محمد ويس ، ذلك القروي البسيط القلب في قصة « الرؤيا » يموت بمثل ما مات به عارف لان شيخ القرية ادخل في ذهنه انه قد رأى ما لا يرى ؟ ولولا تلك الحيلة البارة التي لجأ اليها معلم القرية فادخل في ذهن محمد ويس رؤيا معاكسة لتلك التي رآها في المرة الاولى ، هل كان محمد ويس سينجو من ميتة عارف ؟

ومهما يكن من امر ، فان الموت سيصبح هو الرؤيا الرئيسية في عالم المعجلي في قصصه القادمة . ذلك ان للموت سرا لا يستطيع كل علم العالم النفاذ اليه . العلم يستطيع ان يقرر احيانا بم مات الانسان ، ولكنه لا يستطيع ان يعلم لم مات . ان الدكتور رشيد في قصة «الكأس» قد مات اختنافا بانسداد شرايين القلب . هذه حقيقة لا يمارى فيها . ولكن لماذا لم يموت في النوبة الاولى ولا في النوبة الثانية مع انهما كانتا قاتلتين ، في حين مات في النوبة الثالثة التي اكد له الاطباء انها لن تكون قاتلة لان الشعبة المسدودة من شرايين قلبه قد قامت مقامها شمع جانبية اخذت على نفسها ان تغذي تلك المنطقة من نسج القلب التي كان يغذيها الشريان المسدود؟ ان «الموت هو اجمال كل تفصيل في الوجود (٢) » كما يقول راوية قصة « الكأس » ، فاي فائدة من الاجمال او التفصيل في اسباب موت الدكتور رشيد ؟ ان الاطباء الذين قرأوا مخططات قلبه قبيل وفاته قالوا بان نوبة ثالثة من نوبات الخناق هي بالنسبة اليه نوبة قاضية ، فماذا حدث اذن للشعب الجانبية ؟ بل كيف امكن ان تصيبه نوبة ثالثة مع ان نظامي جامعة فيينا اكدوا له ان ليس عليه ان يخشى من نوبة ثالثة ؟

لقد مات الدكتور رشيد بنوبة ثالثة . هذه حقيقة لا تقبل نقاشا . ولكن لم مات الدكتور رشيد ؟ لم انتابته نوبة ثالثة ؟ ان كل هذه الاسئلة لا تجد لها جوابا الا في لغز الكأس ، الكأس التي كان الدكتور رشيد قد اعد لها ليشرب فيها دواءه اذا ادركته النوبة الثالثة . ولقد شاء حظ الدكتور رشيد السيء ان تتحطم هذه الكأس بحركة طائشة من الخادم . ومن لحظتها دخل في روع الدكتور رشيد

(١) : « فتاويل اشبيلية » - دار الاداب - ص ٦٨ - ٧٤ .

(٢) : « الحب والنفس » ، - دار الاداب - ص ٤٣ .

(٣) : « الخائن » - دار الطليعة - ص ١٠٣ .

يطرقها ، بقض النظر عن مضمون هذا الادب ، عن تفاؤله او تشاؤمه ، تقدميته او رجعيته .

وإذا كان الموت هو النهاية المحتومة للعديدين من أبطال العجيلي ، فهذا لا يعني انه ايضا نهاية الرؤيا عن العجيلي ، بل على العكس من ذلك تماما : ان الموت عند العجيلي ليس غاية الرؤيا وانما وسيلتها ، تماما كما كان العلم والطب وسيلتها في مجموعة « بنت الساحرة » . وإذا ما بدت لنا كلمة « وسيلة » ماجنة بعض الشيء بالنسبة الي الموت ، ذلك السر الاكبر ، فلنقل اذن ان الموت عند العجيلي هو « جو » الرؤيا والخارق . ومثل هذا الجو قد خلقه العجيلي هو « جو » الرؤيا والخارق . ومثل هذا الجو قد خلقه « الظهيرة » و « الطراد » و « الصيد العظيم » و « الخيل والنساء » و « على فم البئر » ، كانت البادية واسربتها واساطيرها ورمالها اللامتناهية هي المناخ الامثل للرؤيا ، وعلى وجه التحديد رؤيا ما هو خارق للطبيعة وقوانين الطبيعة . وفي قصص مثل « ساعة الملام » و « فناديل اشبيلية » و « الليل في كل مكان » و « الحب والنفس » و « التحذير » و « لقاء كل مساء » استطاعت الرؤيا ان تنلبس الجو الذي يجعلها معقولة او قابلة للتصديق من قبل العقل بفضن الغرب والترحال في بلدان اجنبية غريبة وغير مالوفة . ولقد اخطأ بعض النقاد بحق العجيلي عندما لم يروا فيه اكثر من كاتب رحلات (1) ،

ولكن مثل هؤلاء النقاد قد غاب عنهم أن العجيلي انما يريد قبل كل شيء ان يخلق جو ليتاح فيه للرؤيا ان تشرق وتحي . ولعل العجيلي لم يوفق في خلق مثل هذا الجو كما وفق في القصص التي جمعت بين جوين متنافرين متضاربين مثل « ساعة الملام » و « سالي » حيث يجد القارئ نفسه في انتقال مستمر بين البادية بهجيرها ورمالها اللاظية وفراغها السرابي ورجالها السمر وبيبين بلدان الشمال الاوروبي بصقيعها ومدنها العامرة ورجالها الشقر .

ولقد قلت في مستهل هذه الدراسة ان العجيلي انما هو خالق جو قبل كل شيء . وقد يكون من حقنا ان نرفض الرؤيا التي يريد ان يوحى بها لنا ، وقد يكون من حقنا ايضا ان نعالج في رفض هذه الرؤيا التي حشد اتهامها بالفيبيية وبكل ما يترتب على هذه التهمة من نتائج ، ولكننا لن نستطيع مع ذلك ان ننكر ان العجيلي قد خلق اجواء ساحرة ، متفردة ، اخاذة ، واننا قد اخذنا بها بالرغم من احتجاج العقل فينا . ولهذا على وجه التحديد ، اي لان العجيلي « اخذنا » رغم ارادتنا وآرائنا المسبقة قلنا انه راوية فنان ، ومن الرواة احيانا من يفوق الشعراء والبرواني والفاص ذكاء وعمقا وفنا .

جورج طرابيشي

حلب

(1) : كنت انا شخصيا من ضمن هذا البعض .

أصول الفكر الماركسي

تأليف اوغست كورنو

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

رحلة من داخل الفكر الماركسي وتأسيس للحركة الماركسية في الفكر الالمانى قبل ماركس بدءا من الفلسفة العقلانية الى الحركة الرومانتية ثم وقفة كبيرة عند هيغل من حيث هو مصدر غنى للفكر الماركسي ثم وقفة كبيرة اخرى عند اليسار الهيفلي بصفة عامة ولودفيغ فيورباخ بصفة خاصة . . وهنا يهتم المؤلف بابرار فكرة الاغتراب عند كل من هيغل ثم موسى هسن وفيورباخ ، وهي تلك الفكرة التي اثرت على ماركس الشاب وبحث في المكونات الفلسفية وتطوره الفكري حتى البيان الشيوعي بعد ان تكون رحلة الاصول قد استكملت . .

والمؤلف واحد من كبار المفكرين الماديين واستاذ للتاريخ الثقافي بجامعة همبولدت ببرلين . . وهو من اوائل من اهتموا بمشكلة الغربة عند ماركس وركز على مخطوطة ماركس الاقتصادية والفلسفية التي نشرت في الثلث الثاني من القرن العشرين وعدلت النظر الى كارل ماركس . .

صدر حديثا - عن دار « الاداب »
في طبعة جديدة

الثلث ٣٠٠ ق . ل